المحاضرة الرابعة عشر: الأدب والتطوّر

تمهيد:

يرتبط تطوّر الأدب بنظريّة الأنواع الأدبيّة، أو بالأحرى، لا يمكن الحديث عن التطوّر الأدبي دون التعريج على قضيّة الأنواع الأدبيّة، ويدور التطوّر الأدبي حول فكرة أساسيّة مؤدّاها: هل الأدب يخضع للتطوّر كغيره من العلوم الإنسانيّة والطبيعيّة الأخرى؟ وما هي الطريقة أو المسار الذي يتّخذه في عمليّة التطوّر؟ علمًا أنّ فكرة التطوّر في حدّ ذاتها أحدثت تغييرات فارقة في المناهج والعلوم والقوانين التي كانت سائدة ردحًا من الزمن، لاسيما بداية القرن التاسع عشر.

1. مفهوم التطوّر والتطوّر الأدبي:

يرى الباحث **شكري عزيز الماضي** أنّ فكرة التطوّر التي ظهرت في القرن الماضي وحظيت باهتمام النقاد والفلاسفة والمفكّرين، أحدثت ثورة فكريّة اقتلعت مبدأ الثبات والمُطلق من الجذور، "ومفهوم التطوّر يختلف عن مفاهيم التقدّم أو التحوّل، فالتقدّم يعني التغيّر نحو الأفضل، أمّا التطوّر فإنّه يعني التغيّر سوء أكان هذا التغيّر سلبيّا أم إيجابيّا، لهذا فالتقدّم فيه حكم قيسي على التحسّن أمّا التطوّر فهو إقرار لحقيقة"[1].

من جهة أخرى، لا يرتبط التطوّر بالأدب فحسب، بل يشمل كافّة العلوم الطبيعيّة والاجتماعيّة، "إذ تأسّست عليه ثورة منهجيّة كاملة في النظر إلى العالم المادّي والوجود الإنساني، وفي مناهج البحث وطرائق التفكير، كما زلزل هذا الاتّجاه الأفكار الكلاسيكيّة عن المطلق والسكون والثبات، ودفعها بالنّسبي والحركة والتغيّر"[2].

أمّا في مجال الأدب والدراسات الأدبيّة، فقد أثارت فكرة التطوّر جدلا واسعا بين النقّاد والمفكّرين، وأساس المشكلة، هو التباين في المفاهيم ما بين (التطوّر) و(التطوّر الأدبي)، وهذه المسألة أفضت إلى طرح العديد من الأسئلة في مقدّمتها؛ كيف يتطوّر الأدب؟ حيث إنّ التطوّر في العلوم التجريبيّة والطبيعيّة يختلف حتمًا عنه في العلوم الإنسانيّة، ومع ذلك، استلهم بعض

---

[1]. شكري عزيز الماضي، في نظريّة الأدب، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1993، ص112.

[2]. عبد المنعم تليمة، مقدّمة في نظريّة الأدب، ط3، دار العودة، بيروت، لبنان، 1983، ص90.

النقّاد فكرة التطوّر من حقلها التجريبي وحاول تطبيقها على الأدب من خلال البحث في تطوّر لغة الأدب، وأشكاله الفنيّة وتقنياته الأسلوبيّة والبلاغيّة وغير ذلك.

2. التطوّر الأدبي في النقد الغربي:

حاول بعض النقاد الغربيّون البحث في تاريخ الفنون وربطه بنظريّة التطوّر، ومن هؤلاء نذكر: **فردينان برونتيار** (Ferdinand Brunetiére 1906/ 1849) وهو ناقد ومفكّر فرنسي، يمثّل الفلسفة الوضعيّة (انتقل فيها التفكير من اللاهوت إلى الميتافيزيقا ثمّ إلى المرحلة الوضعية القائمة على العلم والتجربة واليقين)، ومتحيّز للعلوم الطبيعية والتجريبية، تأثّر بنظريات (داروين) في أصل الأنواع، وحرص على تطبيقها في دراسته للنصوص الأدبية، وهو "يؤمن بأنّ لكلّ جنس أدبي زمنا خاصا به يولد فيه، وينمو ويموت، أي أنّ له حياة خاصّة به في امتداد زمني معيّن، مثل الأجناس الحيوانية تماما... ولكلّ جنس من هذه الأجناس فترة وجود محدودة، تتولّد عن سابقتها الممهّدة لها، ثمّ تنتهي إلى لاحقتها الناشئة"[1]، بمعنى أنّ؛ الأجناس الأدبية تولد، تنمو وتتطوّر ثمّ تموت، تماما كما الأنواع الحيوانية.

وضع **برونتيار** أفكاره ونظرياته في عدّة مؤلفات منها: كتاب (تطوّر النقد 1890م) مؤكّدا فيه على أنّ الأنواع الأدبية تخضع لقانون التطوّر الطبيعي الذي تخضع له الكائنات العضوية، ممثّلا لذلك بالخطابة أو (الوعظ الدّيني)، الذي نشأ في الكنيسة في القرن السابع عشر، ثمّ تحوّل في القرن التاسع عشر، إلى الشعر الغنائي (الرومانسي)، معلّلا ذلك بتوافق الموضوعات (المرتكزة على الإنسان بقيمه العاطفية ومكانته الاجتماعية وعلاقته بالطبيعة).

إلى جانب **برونتيار**، نذكر؛ **هيبوليت تين (Hippolyte Taine 1828/ 1893م):** ناقد وفيلسوف فرنسي، عُني بالعلوم التجريبية وبالفلسفة الوضعية، كما تأثّر بفلسفة (أوغست كونت Auguste Comte 1857/1798م) وبنظريات (تشارلز داروين Charles Darwin 1809/ 1906م) في التطوّر، حيث ربط (تين) الأدب بعوامل ثلاثة مكوّنة له هي: البيئة (الوسط)، الجنس (العِرق)، العصر (الزمن)، تتحكّم في طبيعة العمل الأدبي وتحدّد قيمته ومستواه، كما أخضع (تين) النقد

[1]. إبراهيم السعافين وآخرون، مناهج النقد الأدبي الحديث، نقلا عن: ستانلي هايمن، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة (ص206)، ط1، منشورات جامعة القدس، الأردن، 1997، ص46.

الأدبي إلى التفسير العلمي الصارم والدقيق، وكلّ عمل أدبي، بنظره، يختلف عن غيره باختلاف ثلاثية (الجنس، البيئة، الزمن)، ولعلّ هذا التصنيف المنهجي الذي اعتمده (تين) قد جعل العوامل والمؤثّرات الخارجية تتحكّم في النص الأدبي بشكل مبالغ فيه، ممّا يضع العناصر الفنية الجمالية للإبداع على هامش العملية النقدية، كما يلغي عبقرية الأديب وموهبته.

3. التطوّر الأدبي عند الشكلانيين:

يرى الشكلانيون أنّ تاريخ الأدب إنّما هو تاريخ تطوّر الأشكال الأدبية إلى ما لا نهاية، "الشكل الجديد لا يظهر لكي يعبر عن مضمون جديد ولكن ليحل محل الشكل القديم نتيجة للمفهوم الجديد للشكل. إنّ فهم الشكل كمضمون حقيقي يتبدل بدون انقطاع عن طريق علاقته بأعمال الماضي"[1]. "إنّ قضية التاريخ الأدبي المركزية، بالنسبة لنا، هي قضية التطور خارج الشخصية، وخارج دراسة الأدب كظاهرة اجتماعية في الأصل. وهي هذا الاتجاه أعطينا أهمية فائقة لمسألة تكون الأنواع الأدبية واستعراضها"[2].

وفقا للمفهوم الشكلاني للتطوّر الأدبي، ففي تطوّر شكل إنشائي، لا يتعلّق الأمر كليّا بزوال بعض العناصر وانبعاث عناصر أخرى بقدر ما يتعلّق بانزلاق في العلاقات المتبادلة لمختلف عناصر النظام.

4. هل يصحّ تطبيق قوانين التطوّر العلمي على التطوّر الأدبي؟

ذكر الباحث **شكري عزيز الماضي**، أنّ التطوّر الأدبي يعتمد حقيقتين؛ أنّ الحقيقة العلميّة تعتمد على الحقائق القديمة، والحقائق الجديدة تأتي نتيجة تراكم حقائق قديمة، وهو ما لا نجده في تطوّر الأدب "ذلك أنّ العمل الأدبي الجيّد والجديد قد لا يأتي نتيجة اعتماده على الأعمال الأدبيّة القديمة"[3].

5. كيف يتطوّر الأدب؟

---

[1]. بوريس إخنباوم، نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيين الروس)، تر ابراهيم الخطيب، ط01، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1982، ص60.

[2]. لمرجع نفسه، ص65.

[3]. شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص115.

ظهرت نظريّات فلسفيّة وأفكار تستند إلى أطاريح أفلاطون وأرسطو حول طبيعة الفنّ ودوافعه، تلك النظريّات تقوم في الأساس على فكرة الإلهام، هذه الفكرة التي تجعل من عبقريّة الأديب وموهبته أمرا فرديّا خالصًا، ولا يمكن أن تنتقل تلك الموهبة والمهارة الخاصّة من أديب إلى آخر ممّا ينفي فكرة التطوّر في الأدب مثلما هو التطوّر في العلم، "فكلّ عمل أدبيّ نِتاج عبقريّة فرديّة وهذه العبقريّة لا يمكن أن تنتقل من فرد إلى آخر"[1] على حدّ تعبير **كانط، ألدروس هكسلي، جون كيرد** وغيرهم.

يُوجز **شكري عزيز الماضي** الإجابة عن سؤال: كيف يتطوّر الأدب في قوله: "إنّ العلم يتطوّر ويتقدّم لكنّه يختلف اختلافا جوهريّا عن الفنّ، وطبقا لهذا الرأي فإنّ الفنّ والأدب يسير في مسارات خاصّة به، فهو خارج نطاق عمليّة التطوّر لأنّ الأديب الفرد عالم مستقلّ قائم بذاته لا يتأثّر بغيره من المبدعين، إنّ مفهوم التطوّر والإيمان به له نتائج مهمّة على صعيد الإبداع الأدبي من جهة والنقد الأدبي من جهة ثانية، لأنّ التسليم بالتطوّر الأدبي يعني التسليم بمؤثّرات عديدة في عمليّة الصياغة الأدبيّة، فإذا كان الأدب ظاهرة متطوّرة فهو يؤثّر ويتأثّر بالماضي والقوى الاجتماعيّة والأفكار السائدة والأعمال الأدبيّة المعاصرة والقديمة كذلك، لكن كلّ هذا يتنافى مع نظريّة الإبداع الخاص المستقلّ التي تربط الإبداع بالعبقريّة الفرديّة، فالأديب من وجهة نظرها، يبدع أشكالا أدبيّة جميلة من أعماق نفسه أو من اتّصاله الوثيق بالطبيعة وحدها"[2].

[1]. المرجع السابق، ص117.

[2]. شكري عزيز الماضي، في نظريّة الأدب، ص118.